حول النظرية التربوية الإسلامية

مقدمة :

على الرغم من خطورة (النظرية) بالنسبة للفكر على وجه العموم ، والعلمى منه على وجه الخصوص ، فإن هناك إسرافاً فى استخدام هذا المصطلح ، حتى أن هذا الإسراف ليؤدى إلى ما تؤدى إليه كثرة استخدام عملة معدنية معينة فترة طويلة من الزمان ، من ضياع لمعالمها ، بحيث لا يدرى المتعامل بها على وجه اليقين القيمة الحقيقية لها ، كذلك لا يدرى القارئ أو السامع أى معنى يقصده المتحدث أو الكاتب عندما يستخدم مصطلح النظرية .

وإنى لأصارح القارئ ، باعتبارى جنديا من جنود كتيبة البحث العلمى فى التربية الإسلامية ، بأننى كنت أتجنب دائما استخدام مصطلح النظرية فى هذا المجال بصفة خاصة نظرا لأن المعنى الشائع عن النظرية أنها بناء فكرى متسق ، مستمد من الواقع الخبرى ويسعى إلى تفسير علاقات معينة بين ظواهر بعينها من ظواهر هذا الواقع ، وهذا البناء ذو صفة تنبئوية ، ويقف عند مستوى (الاحتمالية) ، قابل للتجريب ، كما أنه قابل بالتالى للحكم عليه بالصواب أو الخطأ .

وبناء على ذلك فإن التربية الإسلامية ، إذ تعتمد على كلام الله سبحانه وتعالى ، الموحى به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، يستحيل أن ينطبق عليها هذا المفهوم ، مما كان يجعلنى أنتقد بشدة ، الحديث عن النظرية التربوية – مثلا – فى القرآن الكريم ، أو فى السنة النبوية .

لكننى ، بعد فترة من التفكير وإمعان النظر فى القضية ، تبين لى أن هذا المعنى سالف الذكر إنما يتصل بمجموعة الدراسات الإمبريقية التى تكون مادتها

وقائع هذا العالم الذى نخبره ونعيشه ، ونلمسه متغيرا متبدلا من وقت لآخر ومن مكان لآخر ، وخاصة فى العلوم الطبيعية والرياضية والتطبيقية . لكن هذا المعنى نفسه لا يستقيم أمره عندما نكون إزاء دراسات أخرى فى المجال الإنسانى ، وخاصة كما نرى فى الدراسات ذات الطابع الفكرى وذات المنحى الفلسفى التأملى . هذا من جانب ...

ومن جانب آخر ، فإننا لابد من الاعتراف بأن ما يسوقه الباحثون فى التربية الإسلامية إنما يصور رؤية الباحث نفسه وفهمه للنصوص الواردة سواء من القرآن الكريم أو من السنة. وما دام البحث متعلقا (برأى) عن (نص) ، فإنه يمكن تكوين (نظرية) هنا باعتبار أنها تتصل بجملة (الآراء) التى جاءت نتيجة اجتهاد الباحث ، حيث تكون هذه النظرية بناء فرضيا يفسر به وقائع النصوص ، وتكون النظرية بالتالى قابلة للاختبار على محك الواقع النصى ، وأن تنقد وتخطأ أو تصوب .

بهذا المعنى ، يمكن لنا أن نقدم على استخدام مصطلح (النظرية) فى هذا المجال .

حتمية ظهور تربية الإسلام لإعادة تشكيل السلوك الإنسانى :

لعل أبرز الحقائق التى يمكن أن يخرج بها المرء نتيجة الوعى بحركة التاريخ لدى معظم الأمم والشعوب ، وعلى امتداد الأحقاب الماضية ، أن الدين كان – ولا يزال – قوة لا تماثلها قوة ، ذات أثر ضخم فى تحريك الأحداث التاريخية ولا تسمح هذه الحقيقة لأحد أن يزعم أن العقيدة الدينية شئ تستطيع الجماعة أن تلغيه ، ويستطيع الفرد أن يستغنى عنه فى علاقته بتلك الجماعة أو فيما بينه وبين نفسه حيث لا يستطيع أحد أن يستكنه ما يدور فيها [١].

وإذا كان العرب فى جاهليتهم ، فى الأغلب والأعم، قوما مشركين ، إلا أن ذلك لا ينفى تلك الحقيقة التى تقول أن الإنسان منذ نشأته الأولى ، وهو لا يستطيع أن يعيش بلا عقيدة تملأ قلبه ويسعها عقله ، ذلك أن الإنسان إذا رجع إلى نفسه بالتأمل ، تتكشف له ظاهرة باطنية ترتبط كل الارتباط بكيانه وتكون مقوما ضروريا لطبيعته ، تلك هى ميله إلى الاعتقاد فى شئ، أى شئ ، وإدراكه لضرورة التصديق ببعض القضايا والمسلمات التى لا يستطيع عنها فكاكا وليس فى مقدوره أن ينفصل بفكره ووجوده عن رباطها الوثيق وصلتها العميقة فى نفسه.

وسواء كان هذا الشئ فكرة ذهنية أو موجودا خارجيا أو شعورا وجدانيا وحقيقة قلبية ، فإن المرء يستشعر فى نفسه من الخضوع له والإذعان لأوامره والوقوع تحت تأثيره بمقدار ما يتجلى له من حقيقة هذه الفكرة أو هذا الموجود وما ينكشف له من معانيهما ، وأيضا بمقدار ما ينطبع عنهما فى ذهنه من آثار ، وما يكون لهما فى وجدانه من انفعال ، ثم ما يقوم لهما فى قلبه من قداسة واعتبار (٢) .

وإذا كانت هذه هى قوة الدين وإيجابيته فى تحريك الحوادث والتأثير فى مجرى التاريخ، وإذا كانت هذه هى ضرورة (الدين) بالنسبة للإنسان وتلازمه لحياته فى مختلف العصور، فإن هذا يجعل منه أيضا قوة تربوية لا مثيل لها ، ذلك أننا فى التربية ، كما هو دارج ومشهور ، لا نعنى بمجرد إكساب النشء ، كما معرفيا ، صغر أو كبر ، بسط أو عقد ، وإنما نهتم بالدرجة الأولى ، بالإضافة إلى ذلك ، بإكساب الناشئ ، من السمات والقيم والعادات والميول ، ما يحوله من مجرد (كائن حى) ، يأكل ويشرب ويتناسل وينام ، وغير ذلك من العمليات الحيوية ، إلى (إنسان) يفكر ويتخيل ويتصور ويخطط ويدبر ويبدع ويبتكر، ومن مجرد (كائن حى) ، يبدو ريشة فى مهب ريح قوى

الطبيعة العاتية ، إلى (إنسان) له من الإرادة ما يمكنه من تسخير هذه القوى فيما مصالحه ومنافعه [٣] .

ومن المعروف والمشهور أيضا فى حقل التربية ، بمختلف مدارسها واتجاهاتها ومشاربها أن شيئا مثل هذا يستحيل أن يتم بقوة خارجية مهما بلغت من الجبروت والقسر ، إنه يتم بقوة من الداخل ، ولا يتم لهذه القوة وجود ولا يظهر لها فاعلية ، إلا إذا أسست على الاقتناع والفهم ، وإلا إذا صدرت عن (عقيدة) يؤمن بها الفرد ويتحمس لها ويضع روحه على كفه استعدادا للتضحية فى سبيلها .

وإذا كان الإنسان دائما فى حاجة ماسة إلى التربية ، كى تحيل مُثُل الدين الفكرية إلى واقع سلوكى ، فإن الأطر الفكرية التى كانت أمام الإنسان قبيل ظهور الإسلام مباشرة ، إذا كان بعضها قد ظهر فى فترة من الفترات تلبية لحاجة بحيث استطاع أن يلعب الدور الرئيسى بالفعل فى إعادة تشكيل الإنسان من جديد ، إلا أننا فى الفترة التى نشير إليها ، نجد أنها كانت قد فقدت مضمونها الرئيسى ، بما أصابها من تحريفات ، وبما حدث من تجاوز لواقع المجتمعات لما تدعو إليه هذه الأطر . بل لقد بلغ الأمر أن برز تناقض واضح بين بعضها وبين هذا الواقع ، وهذا ما أظهر أن هناك حاجة ماسة إلى إطار عقائدى جديد يضم بين جناحيه أحسن ما كانت هذه الأطر تحتويه ، ويطرح ما حدث فيها من تحريفات ويستكمل ما كان فيها من أوجه نقص ، ويستوعب التغيرات الحادثة فى المجتمع البشرى ، بل ويرسم أيضا للمجتمعات التالية [٤] .

وعلى سبيل المثال فإن جمهور العلماء الذين تعرضوا للديانة اليهودية بالبحث ، قد أجمعوا على أنها ديانة قومية موقوتة ، وأنها بطبيعتها لا تعدو أن تكون طورا راقيا من الأشكال الدينية القديمة ضم أخلاطا من المعالم البارزة

لأنماط شتى من الوثنية التقليدية ، وأن اليهودية من الأديان التى ولدت لكى تموت حينما انقضت وتفككت ظروف وأسباب قيامها (٥) .

كذلك فإن الحالة التى تمثلت بها النصرانية فى جزيرة العرب ، لم تكن حالة هداية يحيط بها مذهب واحد صالح ليُعلم من يتعلمه ، بل كانت شيعا سياسية ، ومذاهب متنازعة يتوقف العلم بالصالح منها على هدى الناظرين فيها وعلى ما عندهم من البصر الثاقب والبداهة المنزهة التى يعود إليها الفضل فيما تقبله وتأباه ، ولا فضل عليها لمن يعلمها نِحلة من تلك النِحل تقدح فى سائرها وترمى الذين لا يتبعونها بالكفر والضلال (٦) .

والقرآن الكريم يصف هذه الحالة بين أهل الكتاب جميعا كما جاء فى سورة المائدة ، فيقول عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ .فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ. وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ (سورة المائدة : الآيات ١٢-١٤) .

وهنالك عدد آخر من الأديان التى كانت أيضا بمثابة أطر عقائدية اتخذها عدد غير قليل من البشر وخاصة بالنسبة للشعوب الآسيوية الضخمة فى فارس والهند والصين ، يمكن بدراستها أن نتبين عجزها عن أن تصيغ إنسانا جديدا تطمح إلى وجوده المجتمعات البشرية ، من هذه الديانات الوضعية : المانوية، والمزدكية، والزرادشتية (٧) .

وكما أن الأطر الفكرية قد برهنت على عجزها عن لعب دورها المفروض فى تربية الإنسان تربية تدفعه إلى أمام وترفع من شأن المجتمع البشرى ، فإن الأوعية الواقعية كانت لا تقل عن ذلك تدهورا وتفسخا جعل منها وسائط تربوية خطيرة تلعب دورا مدمرا فى تبديد طاقات البشر وصرف أنظارهم عن عمليات البناء والتطوير وصرفها فى الصراع أو التكالب على الملاذ الموقوتة العاجلة أو بحثا عن لقمة العيش ، ويتضح لنا هذا جليا من خلال استقرائنا لجملة نظم الحكم والإدارة والاجتماع فى الدولتين الكبيرتين : فارس والروم ، فضلا عن مجتمع الجزيرة العربية نفسه (٨) .

كذلك كان سوق الثقافة العلمية حافلا بعدد من الآراء والنظريات التربوية التى أراد بها أصحابها أن يصيغوا الإنسان صياغة تتجاوز ما كان عليه من سوء حال ، كما رأينا فى نظريات أفلاطون وأرسطو والفكر التربوى الرومانى وإذا جاز لنا القول بأن هذه الآراء والنظريات كانت استجابة لظروف كانت واقعة ، وبالتالى كانت هى أنسب الأطر التربوية لها، فإن علامة الاستفهام تظل قائمة فى مدى الدقة والصواب الذى كانت عليه ، بالإضافة إلى أن الظروف التى كانت سائدة وقت ظهور الإسلام اختلفت تماما عن سابقتها ، مما استدعى حتمية إيجاد نظرية تربوية جديدة تستند إلى أسس مختلفة. وقبل هذا وذاك ، فهل هناك مقارنة يمكن أن تعقد بين نظرية قال بها إنسان، هناك إقرار واعتراف من الجميع بأنه غير معصوم من الخطأ ، وبين نظرية أرسى قواعدها خالق هذا الإنسان؟ فإذا ما جئنا إلى العصر الحديث فلربما سمعنا بعضا يقول أن النظرية التربوية الإسلامية كان لها وقتها الذى ظهرت فيه ، حيث استطاعت أن تثبت التجربة التاريخية صدقها وجدارتها وتفوقها الذى لا يقارن ، على سائر الصيغ التى سبقتها . أما وقد مرت قرون طويلة على ذلك ، فتغيرت أمم وتبدلت شعوب، وأصبح إنسان اليوم مختلفا اختلافا جذريا عن إنسان الأمس ،

فإن هذا يقتضى نظريات جديدة تتواكب مع إيقاع العمر ، ومن هنـــا ظهـــرت الماركسية، والوجودية، والوضعية المنطقية، والبراجماتية .

وهذه الدعوى تتطلب مناقشة جوانب متعددة تخـــرج عـــن حـــدود هـــذه الدراسة ، وعلى رأس هذ الجوانب مدى مناسبة النظرية الإسلامية لتغير الزمان والمكان ، ويكفى أن نشير هنا إلى أن رسالة الإســـلام ، إذ تجـــئ مـــن رب (العالمين) إلى كافة (العالمين) ، وباعتبارها الرسالة (الخاتمة) ، فإنها لابـــد وأن تحمل فى ذاتها إمكانات تقبل التغير والتطور ، بل والدعوة إليـــه والحـــث عليه . وهناك العديد من الشواهد والبراهين التى تحفل بها عشرات المـــصادر والمراجع ، فليرجع إليها من يريد [٩] .

لكن علينا هنا أن نشير إلى بعض النقاط الخاصة بهذه النظريات الفلسفية التربوية التى يحفل بها الفكر التربوى المعاصر :

١- فلو قرأنا لرأى كل منها فى النظريـــات الأخـــرى ، لكـــشفنا عـــدم صلاحيتها جميعا لتربية الإنسان ، وفقا لأحكام روادها هم أنفسهم ، وهذا أمـــر طبيعى بالنسبة للفكر البشرى ، فلم يؤت أحد من الحكمة ما يجعل رأيه محيطـــا إحاطة كاملة بمختلف جوانب الحقيقة . إنه قد ينجح فى إدراك هذا الجانـــب أو ذاك ، ولكن تظل دائما هناك جوانب أخرى عصية على إدراكه ، بينما تتـــوافر هذه للصورة الشاملة المتكاملة فى الرسالة التى يقدمها خالق هذا الإنسان ومبدع هذا الكون ، وهو الله عز وجل .

٢- لقد سادت الماركسية أمما وشعوبا ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن ، آمن بها مئات الملايين من البشر ، وقامت عليها نظم حكم واجتمـــاع ، ثـــم إذا بهذا البناء التاريخى الضخم يتهاوى من غير أن تطلق عليه رصاصة واحـــدة ، فقط ، عندما واتت الجرأة أحد زعماء النظام (جوربا تشوف) ليتيح الفرصـــة

لبصيص من ضوء كى يمارس الفكر حرية النقد ، فإذا بنا أمام صورة بشعة من أخطاء فادحة جسيمة ، كان القهر يخفيها ، ويعدم من يجرؤ على الإشارة إليها ... كانت نظرية معاكسة لفطرة الإنسان ، وكان لابد أن تسقط على الرغم من نجاح القهر فى أن يطيل عمرها طوال هذه الفترة الممتدة، وكشف هذا السقوط أن للإنسان طبيعة خلقها الله عز وجل وهو الأدرى والأعلم بها وبما تتطلبه من أساليب تربية ، ومن يعاكسها ، فإنه يسقط فى جب الفشل والإخفاق .

٣- وإذا كانت الوجودية قد وجدت لها أرضا خصبة بعد الحرب العالمية الثانية فى بعض بلدان أوربا الغربية وخاصة فرنسا ، فيبدو أن ذلك كان مرتبطاً بظروف الحرب وتداعياتها حتى أصبح صوتها الآن خافتا ، ذلك أنها ركـزت على (الهم الإنسانى الفردى) ، وكثفت الضوء على حريته الفردية ، وحاولت أن تنال من قوة الإلزام والالتزام الاجتماعى ، وبثت روح القلق والاضـطراب بالنسبة لمصير الإنسان ، وزرعت يأسا من أن نشهد مستقبلا أفضل ، ويكفـى الإنسان أن يقرأ صورا أدبية تصور الفكر الوجودى ، ليلمس كيـف أن هـذه الوجهة من النظر تكاد أن تظهر نفسها فى الوجه المظلم من القمر ... الإنسان.

٤- أما الوضعية المنطقية ، فهى ، باعتراف أصحابها ليست نسقا مذهبيا لتربية الإنسان، والنظر إلى الكون والمجتمع ، إنها طريقة فى التحليل المنطقى للعبارات التى يسوقها العلماء عن مظاهر الكون ، وبالتالى ، فمـن المـستحيل الاستناد إليها فى مجال العمل التربوى وإذا كان علينا أن نقدر الجهـد الطيـب الذى يبذله بعض أصحابها من حيث التوضيح الدقيق للمعانى والمفاهيم السائدة فى الفكر التربوى ، فإن علينا فى الآن نفسه أن نعى أن العمل التربوى لا يمكن أن يقنع بالاستناد إلى نظرية فى جانب واحد مهما كانت خطورته ، إنه دائما فى حاجة إلى النظرية الشاملة المتكاملة .

٥- وإذا كانت البراجماتية قد نجحت إلى حد كبير فـــى فتـــرة زمنيـــة ، طبقت فيها بعض أفكارها ، سواء فى بلدها ، الولايات المتحدة الأمريكية أو فى أوربا أو فى العالم العربى ، لكنها لم تستطع أن تعمر طـــويلا ، فهـــى تـــستند استنادا رئيسيا إلى النظام الرأسمالى وقوى السوق ، ودافعية الربح والمنفعـــة ، مما يحول الإنسان إلى سلعة من السلع المادية ، فضلا عما يؤدى إليه النظـــر الرأسمالى القح من التغافل عن جوانب أساسية فى مسألة العدل الاجتماعى. هذا بالإضافة إلى افتقاد هذه الفلسفة للبعد الروحى فى نظرتها للإنسان ، إذا استثنينا بعض النظرات التى نجدها فى أحد روادها وهو (وليم جيمس) .

وهكذا يجد الباحث كيف أن (الصيغة الإسلامية) باعتبار (ربانيتهـــا) هى وحدها التى تحمل إمكانات وفرص النجاح التربوى .

ولربما صاح صائح : إنها قائمة منذ قرون ، فلماذا نرى المسلم المعاصر على هذه الصورة من التخلف والضعف بالقياس إلى أمم وشـــعوب أخـــرى لا تتبنى هذه الصياغة الإسلامية ؟ والرد بـــسيط : إذ مـــن يـــدعى أن الـــصيغة الإسلامية تراعى بالفعل فى تربية الإنسان فى مجتمع معاصر بالصورة التـــى يجب أن تكون ؟

إن هذه الصيغة ، لها مواصفاتها وأسسها وأساليبها ، التـــى لابـــد مـــن الالتزام بها، وما لا يقل عن هذا أهمية ، مدى التوفيق فـــى اســـتنباط النظـــر الخاص بهذا ، من النصوص التى يحتويها القرآن الكريم وتضعها السنة النبوية.

فها هنا يجئ الدور الخطير الذى يناط بعملية الاجتهاد الفكرى ، فلربمـــا أساء باحث فهم النصوص ، واستنبط ما لا يعد نتيجة منطقية وحقيقية للأســـس والمقدمات ، ولربما جاء الاستنباط مغاليا ومبالغا فيه ، ولربما أنطق الباحـــث النصوص ما لم تقله ... وهكذا ، احتمالات متعددة ، مهما كانت خطورتها فإنها

لا ينبغى أن توصد أمامنا باب النظر والتفكير ، فالإتقان والإصابة الحكيمة ، لا تتأتيا إلا بطول الممارسة وشيوعها ، أما الخوف من الخطأ وكف الممارسة ، فسوف يجعلنا دائما أسرى التخلف والجمود .

منهج تأسيس النظرية التربوية الإسلامية :

قضية (المنهج) تكاد تكون هى القضية المركزية فى تأسيس النظريات وإنشاء الفلسفات وإقامة المذاهب الكبرى .

فهناك المنهج التجريبى المعروف عند التعامل مع نظريات العلم الطبيعى ..

وهناك المنهج التاريخى عند التعامل مع النظريات الخاصة بحركة التاريخ ..

وهناك المنهج الوصفى بأساليبه المتعددة من مسح وتحليل مضمون والأسلوب المقارن .. الخ عند التعامل مع الظواهر الإنسانية والاجتماعية المختلفة .. وهكذا

فما هو يا ترى (المنهج) الذى لابد من التوسل به ونحن نبنى (نظرية تربوية إسلامية)؟

الحق أننا هنا أمام خطوتين أساسيتين :

الأولى ، مرحلة (التأسيس) نفسها وتحديد المعالم الرئيسية للنظرية استنادا إلى مصدريها الأساسيين وهما القرآن الكريم والسنة النبوية .

الثانية ، عند التعامل الفعلى مع (الظاهرة التربوية) التى تتبدى فى السلوك الفردى الإنسانى ، وفى السلوك الإنسانى المجتمعى .

بالنسبة للأولى ، فقد تصور البعض أن بناء النظرية يستلزم الاستناد إلى تلك النظرات الفلسفية التى نراها مبثوثة فى كتابات فلاسفة المسلمين أمثال ابن سينا والفارابى وابن رشد والكندى ومن سار على دربهم .

والبعض تصور أن الاعتماد على الخبرة الإسلامية التاريخية التربوية سواء فى إنشاء المؤسسات والمعاهد التعليمية أو من حيث الأساليب والتنظيمات والاتجاهات ، يمكن الاعتماد عليها فى بناء النظرية .

والحق أن الاقتصار فى البحث عن الفكر الفلسفى الإسلامى على جانب واحد فقط هو الفلسفة الإسلامية على طريقة اليونان ، لا يمكننا من أن نضع أيدينا على فلسفة تتسم بالروح الإسلامية الحقة وتمثل إبداعا خالصا للعقلية الإسلامية فى الفكر الفلسفى ، وعلى هذا فإننا لا نستطيع أن نصطنع هذا المنهج الذى يلجأ فيه البعض إلى دراسة التربية الإسلامية من واقع كتابات هؤلاء الفلاسفة الإسلاميين المشبعين بالطريقة اليونانية [١٠] .

إن من أقوى الحجج التى يمكن الاستناد عليها فى ذلك هذه الصور المتعددة من أوجه التشابه بين كتابات لفلاسفة إسلاميين وكتابات فلاسفة اليونان وخاصة أفلاطون وأرسطو إلى الدرجة التى جعلت عددا من المستشرقين يتهمون النظر العقلى الإسلامى بالتقليد وافتقاد القدرة على الابتكار والإبداع . بل إن عددا من الكتابات العربية والإسلامية القديمة نفسها أشارت إلى صور التقليد والنقل هذه .

وفى الأربعينيات من هذا القرن ، بدأ الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كلية الآداب بجامعة القاهرة يشير إلى منهج جديد ، يحاول بواسطته أن يكشف القناع عن إبداع العقلية الإسلامية فى الفلسفة ، وذلك بالتماس نشأة التفكير الفلسفى الإسلامى فى كتابات المسلمين أنفسهم قبل أن يقفوا على الفلسفة

اليونانية ويتبينوا جوانبها المختلفة . ويؤكد هذا المنهج أن المسلمين قد استطاعوا أن يفكروا تفكيرا خالصا يصطبغ بأحوالهم وظروفهم وثقافاتهم ، كما استطاعوا أن يظهروا فيه قدرا لا بأس به من الإبداع الابتكار ، وأن هذا الإبداع والابتكار يظهر بوضوح فى دراسة علم الكلام وعلم أصول الفقه (١١) .

وإذا كنا نتبنى دعوة مصطفى عبد الرازق ، وندعو إلى تطبيقها أيضا فى مجال دراسة التربية الإسلامية ، فإن هذا يعنى اختيارنا للفقه وعلم الكلام كتعبير عن أصالة الفكر الفلسفى فى الإسلام ، وبالضرورة ، اختيار طريقة الفقهاء فى بناء النظرية التربوية الإسلامية ، هذه الطريقة وذلك المنهج الذى يعتمد على القرآن ، فالسنة ، فالإجماع والقياس ، فالعرف ومصالح الناس كمصادر ينبغى أن نستمد منها الآراء والأحكام .

ولعل ما يلقى ضوءا على هذا المنهج ، أن نسوق مثالا تطبيقيا لطريقة تفكير واحد من مشاهير المربين الإسلاميين ، وهو فى نفس الوقت أحد فقهاء عصره ، ألا وهو (القابسى) ، هذه الطريقة التى تتمثل فى الخطوات التالية : (١٢)

اعتمد القابسى على أدلة من الكتاب والسنة ، نجتزئ منها بما يأتى :

(أ) بين الله سبحانه فى كتابه وصف القارئ للقرآن الكريم ، وذلك فى قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ (سورة فاطر ، الآية ٢٩) .

(ب) قال أبو الحسن : والماهر بالقرآن يؤمر بترتيله ، قال عز وجل :(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا .. إلى قوله : أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا) سورة المزمل .

•

(ج) ومن حسن رعايته لهم (أى للمعلم بالنسبة لتلاميذه) أن يكون بهم رفيقا ، فإنه جاء عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به " .

(د) وقال فى تعلم الشعر " وقد ثبتت الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إنما الشعر كلام ، فحسنه حسن وقبيحه قبيح "

ومن الأمثلة التى تدل على اعتماده على الإجماع ، قال : " وأما إمساك الصبيان المصاحف وهم على غير وضوء ، فلا يفعلوا ذلك ، وليس كالألواح ، وما فى نهيهم عن مس المصاحف الجامعة وهم على غير وضوء ، خلاف ، من مالك ، ولا ممن يقول بقوله " .

كذلك لجأ الناس إلى القياس الشرعى ، ومثال ذلك ، الحكم على الوالد بتعليم ابنه القرآن، قال :" جاء أن رسول الله مر بامرأة فى محفتها ، فقيل لها : هذا رسول الله ، فأخذت بعضد صبى معها وقالت : ألهذا حج ؟ فقال رسول الله : نعم ولك أجر فهل يكون لهذه المرأة أجر فيما هو لصبيها حج إلا من أجل أنها أحضرته ذلك الحج : والذى يناله الصبى من تعليم القرآن هو علم يبقى له بحوزه ، وهو أطول غناء " .

وهناك قياس آخر فى تعليم الوالد لابنه :" أن حكم الولد فى الدين حكم والده ما دام طفلا صغيرا، أفيدع ابنه الصغير لا يعلمه الدين ، وتعليمه القرآن يؤكد له معرفة الدين ؟ والأصل فى هذا القياس هو الحديث الذى ذكره القابسى وشرحه " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه ... فقالوا يا رسول الله ، أفرأيت من يموت وهو صغير فقال : الله أعلم بما كانوا فاعلين " .

ثم يعتمد على العرف ، فيقول : " وكذلك المعلمون عندى فى هذه العادات إذا كانت مستحسنة فى الخاصة – فانتشارها على ما وصفنا يوجبها " وتطبيقا

للعرف أيضا قوله : " وأن تخلية الصبيان يوم الخميس من العصر ، فهو يُجرى أيضا عرف الناس " وكذلك بطالة الأعياد على العرف المشتهر المتواطأ عليه ".

وينظر القابسى كذلك إلى صالح التلاميذ من واقع الأسس النفسية فيوجب الرفق فى معاملة الصبيان وعدم العبس فى وجوههم " فكونه عبوسا أبدا ، من الفظاظة الممقوتة ، ويستأنس الصبيان بها ، فيجرئوا عليه ، ولكنه إذا استعملها عند استئهالهم الأدب ، صارت دلالة على وقوع الأدب بهم ويأنسوا إليها " . وذكر فى مكان آخر أنه ينبغى أن يتجنب المعلم الشتم ، لأن " الألفاظ القبيحة إنما تجرى من لسان التقى إذا تمكن منه الغضب ، وليس هذا مكان الغضب " .

وإذا كانت هذه هى طريقة الفقهاء التى يمكن الاعتماد عليها ، فإن الأمر بالنسبة لنا نحن التربويين قد يتطلب بعض المواءمة مع طبيعة العمل التربوى ، وعلى سبيل المثال فمسألة (الإجماع) التى قد تعتبر فى قضايا الحلال والحرام فى المعاملات الشرعية ، قد لا تكون متوافرة فى كثير من القضايا التربوية التى تخضع إلى حد كبير للنسبية والتغير الزمانى والمكانى ، وإن كان هذا لا ينفى أن هناك بطبيعة الحال عددا من المفاهيم والعموميات التربوية التى تقتضى اتفاقا عاما فى الرأى ، كما نرى على سبيل المثال فى مرحلة التعليم الأولى ، حيث لابد من توافر قدر من المعارف والمهارات والقيم والاتجاهات المجمع عليها فى المجتمع ، فى برامج هذا التعليم لتوفير الحد الأدنى الضرورى فى تكوين الشخصية .

يبقى بعد ذلك أمامنا الخطوة الثانية ، وهى التى تتعلق بالظاهرة التربوية كما تتبدى فى السلوك الإنسانى على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة :

إننا هنا أمام ما يشبه المساحة المتسعة التى تتطلب أكبر قدر ممكن من الاجتهاد واستثمار المناهج والأساليب العلمية الحديثة فى البحث .

وعلى سبيل المثال فنحن نجد أنفسنا أمام قضايا استحدثت بحكم التطور البشرى ، تحتاج منا إلى إعمال الفكر ، من هذه القضايا ما يتصل بتمويل التعليم ، ذلك الأمر الذى كانت تقوم به الدولة ، فإذا بتكاليفه تتضاعف عاما بعد عام بحيث تعجز الدولة عن تحملها جميعا . صحيح أن هناك دولا مما اصطلح على تسميتها بدول (اليُسر) ، لكن هناك دولا أخرى عربية وإسلامية ما تزال تقع فى دائرة دول (العُسر). هذا فى الوقت الذى تطالب فيه حكومات هذه الدول بأن تحقق مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية الذى أحد وسائله الأساسية ألا يقف المال عائقا يحول بين الإنسان وبين نيل حقه فى التعليم .

إننا لا نستطيع فى هذا الحيز الضيق أن نناقش هذه المشكلة ، فهى تحتاج إلى دراسة مستقلة قائمة بذاتها وإنما نحن هنا نطرح مثالا لقضايا تحتاج إلى لجتهاد وإلى استخدام أساليب فكرية جديدة .

وهناك مثال آخر يتصل بالعديد من ظواهر الانحراف السلوكى المواكب لمظاهر التمدن الحديث مما يقتضى التوسل إلى علاجه بدراسته أولاً دراسة علمية منهجية تستند إلى مناهج البحث الاجتماعى الحديث من مسح واستبيانات ودراسة اتجاهات وتغيير قيم وإكساب أخرى جديدة ، فضلا عن أساليب البحث الأنثروبولوجى الذى يقتضى الملاحظة والمشاركة، وهناك فى دراسة الظاهرة السيكلوجية أساليب ومناهج خاصة لابد من التوسل بها .. وهكذا .

مصادر النظرية التربوية الإسلامية:

إذا كان هذا هو (المنهج) الذى نرى ضرورة الالتزام به فى عملية بناء نظرية التربية الإسلامية ، فإن الخطوة التالية هى الاتفاق على (المصادر) التى ينبغى الاعتماد عليها فى استخدام هذا المنهج والحق أن المثال الذى سقناه على كيفية استخدام واحد من المربين الإسلاميين لطريقة الفقهاء فى الحديث فى

التربية الإسلامية ، يشير بالتبعية إلى هذه المصادر، والتى نوجز الإشارة إليها فيما يلى :

١- القرآن الكريم : فلقد نزل كتاب الله تعالى لهداية الناس إلى ما به صلاح حالهم ، وحفلت آياته بالنص على ذلك ، قال تعالى : " ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة النحل ، الآية ٤٦) . وقال : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (سورة ص ، الآية ٢٩) ، ومن هنا تجئ ضرورة أن يحتل القرآن الكريم المكانة الأولى وأن يكون هو المصدر الأول الذى يجب الاستناد إليه فى عملية بناء التربية الإسلامية .

إن هذه الصفة التى نقرنها بهذه التربية التى نتحدث عنها (الإسلامية) تلزم المشتغل بها السير على هدى دستور الإسلام الأساسى وهو القرآن الكريم ، هذا فضلا عن تلك البديهية التى تؤكد بأن صانع المخلوق هو الأعلم بكيفية التعامل مع عملية تشكيله وتنشئته وصياغته ، وهو ما سبق أن أشرنا إليه .

٢- السنة النبوية : ورسول الله صلى الله عليه وسلم – لأنه يمثل الأخلاق القرآنية فى ذروتها وسنامها – جعل الله له مكانة خاصة بين المسلمين ، فهو ، عليه السلام – لأنه تمثل القرآن وحققه وأصبح قرآنا – أصبح بذلك قدوة لابد من اتباعها ، يقول الله تبارك وتعالى له معبرا عن هذه الحقيقة ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ .. ﴾ (سورة الشورى ، الآية ٥٢) ، ويقول أيضاً لرسوله : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا ... ﴾ (سورة الأنعام ، الآية ١٦١) ، ويعمم الله الحكم تعميما ويطلقه إطلاقا ، فيقول : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (سورة الحشر، الآية ٧) ويقول : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (سورة التغابن ، الآية ١٢) .

واتباع الرسول ، علامة على محبة الله تعالى لمن يتبعه ، وسبب فى حبه تعالى له ، قل: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة آل عمران ، الآية ٣١) ، ومن أجل هذا لم يكن عجبا أن يأمر الله بطاعة الرسول ، بل وجعلها مقرونة بطاعته سبحانه وتعالى ، يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ (سورة الأحزاب ، الآية ٣٦) .

٣- أقوال الصحابة : فلو تأملنا فى كثير من النظريات والفلسفات والعقائد والمذاهب ، فسوف نجد أنه إذا كان لصاحب النظرية أو غيرها الرأى بالنسبة لكل ما يتعلق بها ، فقد جرت العادة – ويجرى بذلك المنطق أيضا – أن أقرب الزملاء والتلاميذ المباشرين لصاحب النظرية ، يكونون مصدرا رئيسيا يعتمد عليه عند الحديث عن النظرية أو المذهب ، والنبى محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى أرسله الله سبحانه وتعالى بعقيدة الإسلام ، كان له عدد من الصحابة الذين تلقوا الدعوة على يديه وتحملوا معه مشقة نشرها ومارسوا أمامه ما تدعو إليه، وكان الرسول معهم فترة لا بأس بها يرشدهم ويصحح لهم ويقودهم فيما يقولون ويسلكون ، فمن الطبيعى ، والأمر هكذا أن تدخل أقوال الصحابة وأعمالهم مصدرا ثالثا أساسيا فى بناء التربية الإسلامية .

ونحن إذ نذهب هذا المذهب ، نستند فى ذلك إلى قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ (سورة التوبة ، الآية١٠٠) ، فها هنا نجد أنه سبحانه وتعالى يمدح الذين اتبعوا الصحابة مما يؤكد أن الاستهداء بأقوالهم وأفعالهم مما يستوجب المدح ، فذلك نوع من الاتباع .

٤- المصالح الاجتماعية : والحق أن اعتبار المصالح الاجتماعية مصدرا للنظرية التربوية الإسلامية ، مما يتفق وحكمة الإسلام ، ذلك أنه ما جاء إلا لتحقيق مصالح الناس ودفع المفاسد والمضار عنهم ، ولا تتحقق هذه الحكمة بالوقوف عند المصالح التي نص عليها صراحة على اعتبارها بخصوصها ، وعدم تجاوزها إلى غيرها مما سكت عنه لأن مصالح الناس ليس لها حد تقف عنده ، بل هي تتطور وتتجدد بتوالي الزمان وتختلف باختلاف المكان، والاقتصار على ما نص على اعتباره يؤدي إلى إهدار كثير من مصالح الناس وإلحاق الضرر بهم وإيقاعهم في العنت والمشقة ، ومن هنا وجب اعتبار المصالح الحادثة التي سكت الدين عنها ما دام أنه لم يلغها [١٣] .

ولكن ينبغي ألا يتجاوز في الاستناد على المصالح حدود ما قرره الله سبحانه وتعالى ، وذلك بمراعاة أن تكون هذه المصلحة من المصالحة العامة ، وإلا اتخذ ذلك ذريعة إلى التفرقة بين الناس ، وهذا يصطدم مع ما أوجبه الله من المساواة بينهم ، كما أنه يجب مراعاة أن تكون المصلحة المراد اعتبارها مصلحة قطعية أو راجحة ، فلا يعمل بها إذا عارضتها مصلحة عامة أخرى أرجح منها أو مساوية لها .

٥- القيم والعادات الاجتماعية : فإذا كان الإنسان يشارك غيره من الكائنات في البيئة الطبيعية ، إلا أنه ينفرد عنها ببيئة أخرى ، هي (البيئة الاجتماعية) التي يشغلها الإنسان بوصفه كائنا اجتماعيا . وتشمل هذه البيئة البنيان الاجتماعي والتوزيع السكاني وما يتضمنه من قيام الأمصار والمدن والقرى وما ينطويان عليه من المؤسسات والمباني والمصانع ومظاهر الفن والمخترعات ، ومظاهر التراث الاجتماعي الأخرى من عقائد وطقوس وتقاليد وعرف وعادات وأفكار وقوانين ، أي أن البيئة الاجتماعية تشمل كل ما خلقته

مهارة الإنسان وما استحدثه تطوره الثقافى والحضارى وما يحتاجه ويلجأ إليه فى مختلف وجوه نشاطه الاجتماعى [١٤] .

هذه الأمور التى أشرنا إليها تسمى بالتراث الاجتماعى . وتتبين لنا أهمية التراث الاجتماعى بهذا المعنى كمصدر تربوى إذا وضعنا فى اعتبارنا أهمية المجتمع بالنسبة للفرد ، فالفرد كما نعلم لا يعيش وحده ، بل لا يتصور وجوده إلا فى مجتمع ، إنه يولد فى وسط مجتمع وهو فى حالة ضعف تام ، فهو لا يعدو أن يكون (كتلة) من الاستعدادات الفطرية ومن الدوافع والانعكاسات النفسية ، فمقدرته الفيزيقية الجسمية والنفسية الاجتماعية تعتبر فى حكم المعدومة ، عندئذ يتعهده المجتمع بالتربية والتثقيف لكى ينمي جسمه وقدراته العقلية ، ثم يلقنه لغة المجتمع وعاداته وتقاليده الموروثة التى قد ترجع إلى أجيال متعددة ، ويكسبه ذوقه فى المأكل والمشرب والملبس والمسكن ، ويعلمه نظمه الاجتماعية والقوانين التى عليه أن يرضخ لها .

٦- المفكرون الإسلاميون : وشهد الفكر الإسلامى عددا من الفلاسفة والمفكرين الذين أسهموا بجهود تتفاوت فى قيمتها التربوية ، فبحكم التقاليد الثقافية ، كان الفيلسوف يمتد بفكره عبر مجالات متعددة ، ومنها التربية بطبيعة الحال ، وهكذا رأينا فلاسفة تركوا لنا بالفعل آثارا تربوية كابن سينا وهناك فلاسفة قد لا يكونون قد طرقوا التربية بطريقة مباشرة ، ولكن الكثير من آرائهم ونظراتهم يمكن الاستعانة بها فى إكمال صورة النظرية التربوية الإسلامية ، والأسس الفلسفية لها ، خاصة وأننا نعلم أن الفلسفة ، غالبا ما تقوم ، بالنسبة للتربية ، بنفس الدور الذى يقوم به العقل بالنسبة للإنسان .

وتتعدد الدوائر والمجالات الفلسفية الإسلامية التى ينبغى الاستعانة بها ضمن مصادر التربية الإسلامية ، فهناك أصحاب الفلسفة البحتة ، كالكندى والفارابى وابن سينا ، وهناك المتكلمون كالمعتزلة والأشاعرة ، وهناك أصحاب

التصوف ، كابن عربى والحلاج والسهروردى ، وهناك المجتهدون الأوائل من رجال الفقه كمالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل .

الأسس الفلسفية للنظرية التربوية الإسلامية :

وتشكل النظرة الإسلامية إلى الله والكون والإنسان ، الإطار والأساس الذى يوجه العمل التربوى الإسلامى ، ذلك أن لكل دين من الأديان أساسا عقائديا فلسفيا ، منه تنطلق سائر جوانبه سواء قواعد الأخلاق أو تربية أو تنظيم الحياة الاجتماعية ، فإنها فى كل دين ومذهب إنما تنبثق عن الأساس الفلسفى العقائدى وترتبط به وهى نتاج له ، حتى أن المذاهب الوضعية البشرية إنما تقوم على أساس تصورها للوجود ، أو ما يسمى بالنسبة إلى المذاهب الوضعية فلسفتها ، فلكل مذهب من المذاهب فلسفته التى من خلالها ينظر إلى الوجود (١٥)

هذا الأساس العقائدى ، وهذه الأسس أو التصورات التى من خلالها ينظر كل دين وكل مذهب إلى الوجود ، ذو أثر عميق وقوى فى جميع جوانب الحياة التربوية ، فلو فرضنا أن إنسانا يتصور أن الحياة مادية فقط ، وأنه ليس وراء الحياة الدنيا حياة أخرى ، فهو إذن سيبنى سلوكه وتفكيره وأخلاقه وحياته الاجتماعية على هذا الأساس ، فالمذاهب الإلحادية التى تقول – مثلا – أن الإنسان مادة ، وأن حياة الإنسان هى هذه الحياة الدنيا ، ستنظر إلى الإنسان على أنه حيوان منتج ويأكل ويشرب ويعمل وليس وراءه بعد ذلك شئ ، فإذا تصورها للإنسان وللحياة وللوجود أدى إلى نتائج تربوية عملية .

والقاعدة التى يقوم عليها المنظور الإسلامى للوجود هى أنه حادث ومخلوق من قبل إله واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

والحق أن العقيدة فى الإله رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها، ومن عرف وعقيدة قوم فى إلههم ، فقد عرف نصيب دينهم من رقعة الفهم والوجدان

، ومن صحة المقاييس التى يقاس بها الخير والشر ، ونقدر بها الحسنات والسيئات ، فلا يهبط دين وعقيدته فى الإله عالية، ولا يعلو دين وعقيدته فى الإله هابطة ليست مما يناسب صفات الموجود الأول التى تتبعه جميع الموجودات [١٦] .

ولقد جاء الإسلام من جوف الصحراء العربية بأسمى عقيدة فى الإله الواحد الأحد ، صححت فكرة الفلسفة النظرية كما تبدت فى آراء الفلاسفة والمفكرين عبر العصور السابقة على الإسلام ، كما صححت فكرة العقائد الدينية ، فكان تصحيحه لكل من هاتين الفكرتين – فى جانب النقص منهما – أعظم المعجزات التى أثبتت له فى حكم العقل المنصف والبديهة الصادقة أنه وحى من عند الله .

ومن الواضح أن هذا الكون الفسيح ، رغم تباين مظاهره ، وترامى أطرافه ، هو فى جوهره منظومة واحدة كحلقات السلسلة تتشابه وتتشابك ، رغم تفرقها ، وهى كلها دليل على قدرة الصانع البارئ الذى (أحسن كل شئ خلقه) ، فهو خلق سوى لا تفاوت فيه ولا اضطراب ، لقوله تعالى (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) .

والعالم المادى الذى نعيش فيه ، عالم تحكمه قوانين وسنن ثابتة هى من صنع الله سبحانه، المسيطر على هذا الكون ، وكل جهد العلم فى هذا المجال هو أنه يكتشف هذه القوانين الطبيعية، لا أن يخلق قوانين من عنده ، وهذه القوانين الطبيعية التى هى من صنع الله ، قابلة للتعطيل بطبيعة الحال ، ولكن ذلك لا يكون إلا بأمره سبحانه ، خالق هذه القوانين ، ولحكمة يراها ومن ثم كان (التوافق) مع الكون يقتضى فهمه وفهم سننه وقوانينه ، وهو ما أمر به الإسلام بوضوح ، مما يعنى فى الترجمة العملية أن يقوم المسلم بدراسة مظاهر الكون المختلفة بالأساليب الدراسة المناسبة لكل جزئية من جزئيات هذا الكون .

كذلك فلابد لأى نظرية أو فلسفة تربوية من تحديد موقفها من (الإنسان) بصفة أساسية، ومبرر ذلك سهل وميسور ، ذلك أن الإنسان هو محور العمل التربوى وركيزته الأساسية ، فنحن عندما نربى ، إنما نربى (إنسانا) ، وعندما نعلم ، إنما نعلم (إنسانا) ، وعندما نقيم المؤسسات التربوية والمعاهد التعليمية ، فمن أجل (الإنسان) معلما ومتعلما وعاملا تلك بدهيات لا تحتاج إلى مزيد من تفصيل ومزيد من البرهنة والتدليل .

والإيمان بأهمية الإنسان مبدأ أكده الإسلام والفكر الإسلامى ، فبينا بوضوح كافة الجوانب المتعلقة بمصدر وسر وجوده والغاية من حياته والمصير الذى ينتظره فى حياته الأخرى ، كما فحصا الكثير من خصائصه ومميزاته ومكونات شخصيته ووجهاه إلى ما ينبغى أن تكون عليه علاقته بربه وبنفسه وبأفراد أسرته ولأفراد مجتمعه ولأمته الإسلامية وبالإنسانية عامة وبكل ما فى الكون من موجودات ، ويكفى دليلا على اهتمام الإسلام أنه ذكر فى القرآن الكريم وحده فى نيف وستين موضعا منه ، وقد جاء ذكره ثلاث مرات فى أول سورة نزلت من القرآن الكريم وهى سورة العلق [١٧] .

وبالإضافة إلى الآيات القرآنية التى ورد فيها ذكر الإنسان صراحة بالعدد المذكور ، هناك آيات قرآنية كثيرة أخرى تحدثت عن الإنسان ضمنا فى نطاق حديثها عن البشر ، أو الإنس أو المؤمنين ، أو بنى آدم ، أو نطاق مخاطبتها لهؤلاء .

والإسلام ، الذى نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليهدى بنى البشر إلى الصراط المستقيم ، كان من الطبيعى أن يحتل " الإنسان " فيه مكانة مرموقة ، ومرتبة عالية بين خلق الله ، فقد أشار فى كثير من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وآثار السلف الصالح إلى ما أنعم الله به على هذا الإنسان من نعم كثيرة تؤكد جميعا تكريم الإنسان وتفضيله على سائر

المخلوقات ، فقد نفخ من روحه وزوده بالمواهب والطاقات البدنية والعقلية والعاطفية وأدوات التقدم التى لا يشاركه فيها مخلوق آخر.

ولقد كان الإنسان فى علم الله القديم – قبل أن يخلق – معنى جامعا للأوصاف التى يتألف منها كيانه المادى والروحى ، أو كان (تصميما) – ولله المثل الأعلى – ينتظر الوقت الذى يظهره الله فيه إلى حيز الحسن والمثال .

ولقد خلقه الله من طين ، ونفخ فيه من روحه ، فإذا هو بشر إنسان سوى بمثل الأوصاف التى سبقت له فى علمه سبحانه وطينة الإنسان ، إذا أمدته بشئ ، فإنما تمده بخصائص الصلصال والحمأ المسنون ، أما صفات القوة والخير والنور فلا ، إذ هى فى ذلك كالأرض الميتة .. فإذا رؤى على الإنسان أثر من هذه الصفات فهو من خصائص السر نفخه الله فيه من روحه [١٨].

أهداف التربية الإسلامية :

ولعلنا بعد استيعاب الخطوات السابقة ، نستطيع أن نشير إلى عدد من الأهداف التى نرى أنها غايات تسعى التربية الإسلامية أن تحققها فى الفرد وفى الجماعة :

١- **التعبد** : فلا جدال فى أن للإسلام غايات وأهداف أخرى إنسانية واجتماعية ، ولكن، عند التأمل ، نجد هذه الأهداف فى الحقيقة خادمة للهدف الأكبر وهو مرضاة الله تعالى وحسن مثوبته ، فهذا هو هدف الأهداف ، أو غاية الغايات ، ففى الإسلام تشريع ومعاملات ، ولكن المقصود منها هو تنظيم حياة الناس حتى يستمتعوا بالحياة الدنيا بعيدا عن الصراع ، ويفرغوا لعبادة الله تعالى والسعى إلى مرضاته .

فهذه التربية تجعل للمسلم هدفا رئيسيا واحدا طوال حياته ، وهو إخلاص بالعبودية لله وحده وخوفه من الله ورجاؤه فى الله ، وكل أخلاقه وأعماله ، ظاهرها وباطنها مقصودا بها وجه الله وحده ، وكل جوانب حياته موجهة بهدى الله وحده﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنعام :١٦٢-١٦٣)

وهذه العقيدة تمكن المؤمن من مواجهة الحياة بروح العبادة ، وجهد العمل الصالح ، كما تمكنه من التغلب على مصاعبها - مهما تعقدت - بروح الأمل فى الله والاستعانة به ، والثقة بعدله وحكمته والرضى بقضائه ، وبذلك تحقق له نوعا فريدا من سكينة النفس وسلامها الداخلى لا يتحقق للوثنى المشرك [١٩] .

٢- التحرير : فلما كان الاستبداد له آثار أكثر من أن تعد وتحصى ، لكنها فى جملتها غاية السوء ، حرص الإسلام حرصا شديدا على الحرية بمعانيها المختلفة حرصا يوفر للتعليم مناخا صحيا لا مناص منه إذا أردنا له نموا وازدهارا ، والإسلام فى هذا سبق كثيرا من المذاهب والشرائع سبقا غير عادى ، ذلك أن الحرية فى الإسلام - خلافا للشرائع الوضعية - ليست حكما سياسيا فحسب ، وليست جزءا من شريعة الإسلام ، وإنما هى فى الحقيقة جزء من عقيدة الإسلام ، ففى اللحظة التى يقرر فيها الإسلام وحدانية الله ، ويطالب الأفراد بألا تذل جباههم إلا للخالق ، قيوم السموات والأرض ، هو يحررهم من العبودية لأى مخلوق ولأية فكرة ولأية جماعة [٢٠] .

٣- إتمام مكارم الأخلاق : فلقد حدد رسول الإسلام الغاية الأولى من بعثته والمنهاج المبين فى دعوته بقوله : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " ، كما رواه مالك ، فكأن الرسالة التى خطت مجراها فى تاريخ الحياة وبذل صاحبها جهدا كبيرا فى مد شعاعها وجمع الناس حولها ، لا تنشد أكثر من تدعيم فضائلهم وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم حتى يسعوا ، بصيرة [٢١] .

٤- **التعليم** : إذ ينشأ الإنسان فى هذا الوجود ضعيفا لا يقوى على الانفراد بمواجهته إلا بعد زمن ليس بالقصير وإذا كانت رعاية الحيوان لأفراخه قصيرة ، فرعاية الإنسان لأولاده تمتد إلى خمسة عشر عاما ، بينما الحيوان لا تمتد رعايته لأفراخه لأكثر من بضعة أسابيع أو أشهر على الأكثر ، وما أحكم قوله سبحانه وتعالى فى الدلالة على هذه الحقيقة فى قوله : " وخلق الإنسان ضعيفا "، ولهذا الضعف الذى صاحب ابن الإنسان من ولادته ، نظمت عليه ولاية حتى يستوى شابا قويا ، يعتمد على نفسه ، ونظم الإسلام رعاية ذلك الضعف حتى يقوى المولود ويزول ضعفه ويستقل بنفسه ، ولا شك أن ذلك يختلف باختلاف الأزمان ، فكلما تعقدت أساليب الحياة ، كان الضعف لا يزول إلا بكثرة الدربة على الحياة (٢٢) .

وبتأمل مسألة الولاية على النفس ، نجد أن (التعليم) يعتبر واجبا شرعيا ، وقد روى فى بعض الآثار أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " غذ ولدك سبعا ، وأدبه سبعا ، وصاحبه سبعا " .. فالفترة الأولى من حياة الطفل تستلزم رعاية جسمية ، فإذا بلغ القدرة على الإدراك والتمييز ، فمن الواجب تعليمه .

٥- **التعقيل** : ونبادر إلى القول فى البداية إلى التنبيه إلى أننا لا نقصد بهذا ، الوقوف عند حد ما يشيع فى الكتابات التربوية فى معنى (التربية العقلية) عندما يقصد بها تزويد التلميذ بكم من المعارف والمعلومات ، وإنما نقصد بها – بالإضافة إلى ذلك – وجوب أن تعمل التربية الإسلامية على تعويد تلاميذها أن ينهجوا فى سلوكهم الفكرى والتطبيقى نهجا عقليا ، على ألا يقتصر جهد (التعقيل) على التلاميذ وحدهم ، وإنما تمتد مظلته لتشمل العمل التعليمى كله تدريسا وإدارة وتنظيما ، وإلا فإنه لن يؤتى أكله مع التلاميذ إذا أقتصر على العملية التدريسية فقط .

٦- **التوجيه الاجتماعي** : المدرسة مؤسسة من المؤسسات التى أقامها المجتمع بهدف أن تكون بيئة منتقاة يتلقى فيها أبناؤها الصغار كل ما يعينهم على أن يكونوا أعضاء فاعلين فى الجماعة البشرية الذين هم جزء منها ، وأن يكتسبوا الكفاءة الشخصية التى تجعل منهم ذوى شخصية تتميز بالسواء والتكامل ، والمدرسة بهذا الاعتبار لابد أن تكون على درجة عالية من الحساسية الاجتماعية تتأثر بما يوجد فى المجتمع من مشكلات ووجهات نظر وتيارات ، وتتطلع إلى ما يرنو إليه من آمال وطموحات .

ومن هنا فإن حسن قيام المدرسة القائمة على التربية الإسلامية بدورها المنوط بها من الناحية الاجتماعية يستلزم (مناخا) يعينها على هذا .

ومن أجل هذا حرص الإسلام على أن يوفر للمجتمع الإسلامى المنشود من المقومات والأسس والمبادئ ما يجعله (رحما) صحيا لتنشئة الأجيال ، الصغير منها والكبير ، مما يجعل من الضرورى بالنسبة للمؤسسة التعليمية الإسلامية أن تتوجه بطلابها نفس هذه الوجهة حتى يتم التناسق والتناغم بين الإثنين .

٧- **التعمير** : تسلم اقتصاديات التعليم - على اختلاف مذاهبها تسليما كبيرا بأن الإنسان - كل إنسان - على هذه الأرض (ثروة) و (رأس مال) بغير نظير ، وأن كل استثمار فى تنمية هذا الإنسان وتجويده وتحسين نوعيته (الثقافية) بالتعليم والتدريب والتغذية والرعاية الصحية والاجتماعية والثقافية والمسكن والملبس الملائمين ، والممارسة الديموقراطية ، وتنشيط البحث العلمى لزيادة التعرف على طبيعته ، هو أفضل استثمار ، بل شرط نجاح أى استثمار آخر ، زراعيا كان أو صناعيا أو تجاريا فى هذا الوجود .

وقد استودع الله عز وجل فى الأرض من الكنوز ما يعد طاقة حقيقية لتحقيق الرفاه لبنى البشر والتقدم والتطور ، وفى نفس الوقت فإنه – عز وجل – قد أودع فى الإنسان من المواهب والقدرات ما يستطيع به أن يستغل كل ما أودعه الله هذه الأرض بل نقول : الكثير مما فى هذا الكون بعد أن استطاع الإنسان أن يخترق نطاق الأرض ليكتشف ويصل إلى كواكب أخرى ، واستغلال الإنسان لمواهبه وقدراته لا يمكن أن يتأتى على أحسن وجه بطريقة آلية ، فمثل هذه المواهب والقدرات تحتاج إلى تعليم وتدريب وتهذيب وصقل وتنمية وتنشئة .

٨- **الإعداد البدنى:** ويتضمن هذا الإعداد ما اصطلح على تسميته بالتربية الجسمية ، وهى تلك العملية التى يقوم خلالها بنشاط جسمانى منظم بهدف تنمية قدرات الجسم المختلفة ، وزيادة كفاءته الحركية وما يرتبط بذلك من اكتساب مهارات حركية معينة ، واتباع عادات صحية سليمة ، وذلك للتكيف مع متطلبات الحياة فى المجتمع .

إن هذا الهدف بالذات ، لابد أن يتأكد فى مختلف البرامج والأنشطة التى تقوم بها مؤسسات التربية الإسلامية ، لضرورته الدينية الإسلامية والتربوية من جهة ،ومن جهة أخرى لأن التربية الإسلامية إذ تعتمد العقيدة الدينية موجها ومنطلقا ، فقد ظن البعض أن ذلك يعنى أن تغرق فى (الروحانيات) ويصبح رائدها قهر البدن والنظر إليه على أنه مستودع الشهوات والرغبات البهيمية ، وهذا غير صحيح .

٩- **الإثراء الجمالى والوجدانى :** وليس هناك من شك فى أن هذه الحياة الإنسانية التى نعد أبناءنا للدخول فى معتركها ، إذا كانت تتطلب منهم جهادا ومغالبة ، وكفاحا ونضالا واقتحام المشكلات والصعاب والعوائق ، فإنها بحكم (إنسانيتها) تظل – مع هذا كله – فى أمس الحاجة للمسة حب ونسمة حنو

وخفقة قلب ، انفعالا برؤية جميل ،وانفعالا بعاطفة إنسانية. إن انفعالات الإنسان وعواطفه هى تلك الشحنة الكهربائية التى تمده بطاقة الحركة وقوة الدفع .

والإسلام فى تربيته للإنسان لا يقنع بإعداده لعالم الضرورة والواقع ، وإنما يلبى الفطرة الإنسانية فى تطلعها إلى عالم الجمال والوجدان ، فالإنسان لا يكتفى بالنظر إلى الجبال على أنها مجرد جبال ، وإنما يبصر الجانب الجمالى فيها عندما تكون مكسوة بالثلوج أو الغابات وهو لا يكتفى بالنظر إلى السحاب على أنه حامل للماء ، ولكنه يراه جميلا فى أشكاله وألوانه، وخاصة عندما ينتشر عليه فى بعض الأحيان طيف الشمس (قوس قزح) فى منظر رائع جميل، وهو لا يقف بالنسبة للنبات عند حد وظيفته المعروفة ، ولكنه ينفعل به عندما يورق ويزهو ، ويستمتع منه بزهوه الأريج وشكله [٢٣] .. وهكذا

ملامح عامة فى التربية الإسلامية :

يكاد أن يكون من المستحيل أن يحيط الكاتب قارئه علما بجوانب التربية الإسلامية الرئيسية ، فهذا موضوع كتب ودراسات كثيرة ومطولة ، مما يتعذر على هذه الصفحات المحدودة ، ومن ثم فإن ما سنأتى إلى ذكره هنا إنما هو أمثلة ونماذج لبعض الجوانب التى تقوم عليها نظرية التربية الإسلامية :

١- **توظيف العقل للتفكير** : فالإسلام حين دعا إلى التفكير ورحب به ، إنما أراد أن يكون ذلك فى دائرة نطاق العقل وحدود مداركه ، فدعا إلى النظر فيما خلق الله من شئ فى السموات والأرض ، وفى الإنسان نفسه وفى الجماعات البشرية ، ولم يخطر عليه إلا التفكير فى ذات الله ، لأن ذات الله فوق الإدراك [٢٤] .

والذين يجحدون نعمة العقل ولا يستعملونه فيما خلق من أجله ويغفلون عن آيات الله هم موضع ازدراء وتحقير ، والله سبحانه يعتب عليهم فيقول : ﴿

وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (سورة يوسف الآية ١٠٥) ، ويقول : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ (سورة يس ، الآية ٤٦) .

وتعطيل العقل عن وظيفته يهبط بالإنسان إلى مستوى أقل من مستوى الحيوان ، وهو الذى حال بين الأقدمين وبين النفوذ إلى الحقائق وفى الأنفس، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾(سورة الأعراف ، الآية ١٧٩).

وتغذية العقل حتى ينمو ، إنما تكون بالتفكير ، فى مظاهره المختلفة والمتعددة ، كالحرص على إقامة الحكم على الحجة والدليل والبرهان ، ومثل الحوار مع الالتزام بآدابه المعروفة ، وكذلك النظر الناقد فيما نقرأ وفيما نسمع وفيما نشاهد ، لا التسليم الأعمى بغير مناقشة وتقليب للأمر على وجوهه المختلفة ، وأيضا البحث عن العلل والأسباب سواء القريب منها أو البعيد ، دون الاكتفاء بالظاهر المكشوف .. وهكذا .

٢- **العمل الصالح يقوم على العلم** : إذ لا شك أن القارئ للقرآن الكريم يستطيع أن يلمس بكل وضوح وجلاء تلك الأهمية التى يوليها العلم أساسا لحركة الإنسانية. والعلم فى التصور القرآنى لا يولد الإنسان مزودا به ، ولا يمنح له إلا نتيجة سعى ونشاط فى سبيل تحصيله ، وهو العمل المقصود بالتعلم ، والذى يقتضى بالضرورة أن تكون هناك أطراف أخرى أو مصادر يتم على يديها ومن خلالها عملية التعليم .

كذلك فإن هذا الإصرار من القرآن الكريم على أن العلم هو الأساس الأول عند ممارسة الحياة ، وليس الظن أو الوهم أو الفروض النظرية ،هو

الذى دفع ببعض المفسرين إلى تفسير العمل الصالح بأنه العمل القائم على العلم ، وليس على الظن أو الوهم أو الخيال. وعندما يقف الإمام محمد عبده أمام قوله عز وجل ﴿ يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (سورة البقرة ٢٦٩) ، يجد أن الحكمة هنا هى العلم الصحيح ، يكون صنعة محكمة فى النفس ، حاكمة على الإرادة ، توجهها إلى العمل ، ومتى كان العمل صادرا عن العلم الصحيح ، كان هو العمل الصالح المؤدى إلى السعادة ، وكم من محصل لصور كثيرة من المعلومات ، خازن لها فى دماغه ليعرضها فى أوقات معلومة ، لا تفيده هذه الصور التى تسمى علما فى التمييز بين الحقائق والأوهام لأنها لم تتمكن فى النفس تمكنا يجعل لها سلطانا على الإرادة ، وإنما هى تصورات وخيالات تغيب عند العمل وتحضر عند المراء والجدل (٢٥).

وإذا نظرنا فيما يجرى من معاملات بين البشر ، وكيف أن من الضرورى لها أن تقوم على المعرفة والعلم ، فإن ما يقوم بين الناس من (حوار) لهو أشد حاجة من غيره من صور التعامل للمعرفة ، إذ لابد لكل من طرفى الحوار من التعرف إلى الفكرة التى ينطلقان فى طريق إثباتها ونفيها ، لأن الجهل بها وبتفاصيلها يحول الحوار إلى أسلوب من أساليب الشتائم التى يغطى فيها كل منهما عجزه عن الدفاع عن فكرته ، بينما تجعل المعرفة كلا منهما واعيا لما يطرح من فكر ولما يستقبل من فكر ، مما يجعله يعرف كيف يبدأ الحوار وكيف يخوض فيه، وكيف ينتهى منه ، فى وضوح الرؤية ، وهدوء الفكر ، وقوة الحجة ، ووداعة الكلمة (٢٦).

٣- الإنسان ذو أصل واحد ، حر ، مسئول : فلقد قرر المفسرون أن كل نص قرآنى ابتدأ النداء فيه بـ (يا أيها الناس) يكون الخطاب فيه للناس جميعا

غير مختص بقبيل دون قبيل ، لأن العنوان فيه للإنسانية كلها ، فكل من يتصف بها داخل فى الخطاب .

وإذا كانت الرسالة المحمدية لها ذلك العموم ، فإنها لإصلاح الجميع ، ولقد عاملت الأجناس كلها وعممت فيهم أحكامها ، فليست هناك أحكام للبيض وأخرى للسود ، ولا أحكام لشرق الأرض وأخرى لغربها .

ولا يصح لهذا أن يحقر إنسان للونه ولا لإقليمه ولا لأنه غير متحضر ، بل إنه لا يحقر إنسان أخاه الإنسان أبدا ، وإن التفاوت بين الناس إنما هو بالفضيلة وبالعمل الصالح ،

وأن يكون فى الإنسان الاستعداد للخير أو الشر ، فذلك معناه بروز مبدأ (المسئولية الأخلاقية) فالإنسان مسئول عن عمله – فردا وجماعة – لا يؤخذ واحد بوزر واحد ، ولا أمة بوزر أمة ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (سورة الطور ٢١) ، ويقول أيضا : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة البقرة ١٣٤) .

إن القرآن الكريم يقرر ويؤكد بكل أساليب التقرير وبجميع أنواع التأكيد أن كل إنسان يحمل مسئولية نفسه كاملة عما يقوم به من عمل خير أو شر ، وأن الكتاب العزيز ليجعل مسئوليته الشخصية قاعدة كلية ومبدأ عاما يناط به كل تكليف من تكاليف الإسلام وكل فرع من فروع مسئوليته التى حملنا الله تعالى إياها .

وتطبيقا لهذا نجد أن التربية الإسلامية تسعى سعيا حثيثا لتدريب الإرادة الإنسانية على ممارسة حريتها فى الاختيار الحر القائم على التمعن وحسن التفكر والتدبير ، وصور الاعتزاز بالذات والاستقلالية .

٤- **التوظيف التربوى للقصة** : فالفنون ، كالرسم والتصوير والنحت والتمثيل والموسيقى والغناء والأدب ، مصدر من مصادر تذوق الجمال، والتربية ، وفيها متعة وسرور للمنشئ ، الذى يؤلفها وينشئها ، وللوسيط الذى يعرضها ، وللمتلقى وهو الذى يدركها وهذه الفنون تؤثر فى نفوس الصغار كما تؤثر فى نفوس الكبار ، لأنها غذاء للوجدان والعقل ، غير أن غذاء الصغار يختلف فى نوعه وكمه وأسلوبه وطريقة عرضه عن غذاء الكبار [٢٧] .

والقصة نوع من الأدب له جمال وفيه متعة ، ويشغف به الصغار والكبار إذا أجيد إنشاؤه وأجيدت واسطته وأجيد تلقيه . والقصة أدب مقروء أو مسموع ، وهى عند من لا يعرف القراءة أدب مسموع فقط ، أما للقارئ فهى أدب مقروء ومسموع معا .

ولهذا فقد اتخذت القصة لغرس بعض القيم الدينية والخلقية والسياسية والاجتماعية والعلمية لدورها وقدرتها على الإقناع العقلى عن طريق المشاركة الوجدانية .

وكانت القصة – وما تزال – مدخلا طبيعيا يدخل منه أصحاب الرسالات والدعوات من الرسل والقادة والمصلحين إلى عقول الناس وقيمهم ليلقوا فيها بما يريدونهم عليه من معتقدات وآراء واتجاهات .

نقول هذا لندرك بعض المرامى التى قصد إليها القرآن الكريم من هذا القصص الكثير الذى ضمت عليه آياته وسوره ، ففى هذا القصص يلتقى الإنسان التقاء صادقا مع أقوى دوافعه وعواطفه التى ولدت معه فى ضباب طفولته ، والتى نضجت مع الزمن من صراعه الطويل مع الحياة ومن هذه الدوافع وتلك العواطف يقاد الإنسان ويؤخذ بناصيته نحو الغايات التى تدعوه إليها القصة وتقوده نحوها ، فالقصص القرآنى هو أحد الأساليب التى حملها

القرآن بين يديه ليحاج بها الناس ، وليقطع المعاندين عن المماحكة والجدل ، شأنه فى هذا شأن ما جاء به القرآن من أساليب الاستدلال والمناظرة والتعجيز والوعد والوعيد ، وغير ذلك من المشاهد والمواقف المبثوثة فى القرآن الكريم كله .

٥- النزعة (العملية) : فإذا كانت التربية تهدف بالدرجة الأولى إلى إحداث تغييرات مرغوب فيها فى سلوك الفرد وسلوك الجماعة ، فإن ذلك لا يمكن أن يتأتى بالغرق فى المسائل الميتافيزيقية والنظريات المجردة . صحيح أن التربية فى حاجة دائما إلى النظرية ترسم لها مسارها ، ولكنها النظرية المنبثقة من (حقائق) ، الموجهة لخير الناس وصالحهم ، فإذا ما استقرأنا عديدا من آيات القرآن ، سنجد أنه يستعرض عددا من المشكلات الميتافيزيقية التى كان البعض يلح على النبى طلبا لإجابة وافية عنها ، فما كان منه سبحانه وتعالى إلا أن بين عدم جدوى البحث فى هذه المشكلات ، وأن الأولى بالتفكير هو مشكلات العمل والواقع ، من ذلك ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الساعة ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ ، فنفى الله علمه بها ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ ، ونبه إلى النافع من أمرها وهو وجوب الاستعداد لها﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ (سورة النازعات : ٤٢-٤٥) .

وإذا كان العلم قيمة عليا فى المجتمع القرآنى وتربيته ، سواء منه ما يرتبط بالعقيدة ، أو يتعلق بالتخطيط وشئون الحياة ، فإن العمل ، هو الترجمة الحية والتجسيد العملى لنظريات العلم ، ذلك أن العقيدة على المستوى النظرى تحتاج إلى العمل ليعبر عنها ويبرزها من نية فى الضمير إلى عمل فى الحياة على شكل عبادة قانتة من صيام وحج وجهاد وصلاة ، ولهذا فإن العمل هو الجانب التطبيقى للعقيدة ، وتظل العقيدة حبيسة القلب ، حتى يترجم عنها العمل ويصبها فى قالب محسوس من جهاد أو صلاة [٢٨] .

وهكذا نظريات العلم المتعلقة بالحياة ، إنها هى الأخرى لا يمكن أن تثمر فى المجتمع وتنشئ حضارة ، إلا إذا ترجمها العمل إلى وجود ماثل ، فالعلم فى الإسلام ليس علما نظريا ، بل علم يترجم إلى عمل .

٦- **التوجه الاجتماعى** : وتوفر (النزعة الاجتماعية) فـــى عقيـــدة أو نظرية من النظريات ، معيارا هاما كذلك يؤكد لنا أنها تصلح أو لا تصلح لأن نستهدى بها فى العمل التربوى ، ذلك أنه ، ولو أننا نربى (أفـــرادا) ، لكـــن هؤلاء الأفراد الذين نربيهم لا يكتسبون هويتهم إلا بالمعايشة فى المجتمع ، ومن ثم فالصفة الاجتماعية هى الموضوع الرئيسى الذى تركز عليه العملية التربوية بالإضافة إلى أن محتوى هذه العملية نفسه إنما يـــستمد مقوماتـــه وخصائـــصه وأهدافه من نفس الجماعة التى تتم فيها .

والذى نود أن نوضحه هنا أن الإسلام ألغى الحواجز غير الطبيعية بـــين الفرد والجماعة، فهما فيه لا ينفصلان ، وهو فى عنايته بالإنسان فردا ، إنمـــا ينظر فيه إلى اجتماعيته التى لا يمكن تصور إنسانيته بمعزل عنهـــا ، كمـــا لا يتصور كيان اجتماعى بغير أفراد .

والإسلام فى رفضه للعصبية القبلية ، اتجه بهذه الذاتية الجماعية العربية الأصيلة إلى نطاقها الرحب فى الأمة ، يحقق فيها الفرد ذاته . ويـــستقيم أمـــر الجماعة بصلاح أفرادها فى اندماج وثيق لا تنفصل فيه فردية عن جماعية .

٧- **البناء الخلقى** : إن الأخلاق اللادينية – بقدر ما لهذا التعبيـــر مـــن معنى – تقيم أعمال الإنسان على أساس المنافع الشخـــصية العاجلـــة ، التـــى صارت أساس المجتمع المدنى ، على أن الأخلاق الدينية (التوحيدية) تحتـــرم أيضا المنفعة الشخصية ، ولكنها تمتاز برعاية منافع الآخرين ، وهى بذلك تدفع الفرد إلى أن ينشد دائما ثواب الله قبل أن يهدف إلى فائدته .

من أجل هذا الثواب صاغت التوراة الميثاق الخلقى الأول للإنسانية فـى وصاياها العشر، وساق الأنجيل توجيهاته فى عظة المسيح على الجبل ، ولكن الأمر فى كلا الكتابين أمر مبدأ أخلاقى سلبى ، فهو يأمر الناس بالكف عن فعل الشر فى حالة ، وبعدم مقاومة الشر فى أخرى (٢٩) .

أما القرآن فسيأتى بمبدأ ايجابى أساسى ، كيما يكمـل مـنهج الأخـلاق التوحيدية ، ذلك المبدأ هو (لزوم مقاومة الشر) ، فهو يخاطب معتنقيه بقوله : " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ".

وبعد ....

إن النظرية التربوية فى الإسلام فى أشد الحاجة إلى أن تتكاتف الجهـود من أجل تحديد معالمها الرئيسية ، عن طريق جهد علمي منهجى جماعى بعيدا عن التشتت البحثى فى صورته الفردية الذى نراه الآن، وهى فى سبيل هذا لابد أن نبعد بها عن تلك السبل التى تنضح بالعجلة والحماس غير الواعى ، فمثـل هذه السبل تؤخر ولا تقدم ، وتضعف ولا تبث دماء القوة فى الشرايين .

الهوامش

١- عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، القاهرة ، دار القلم ، ١٩٦٦ ، ص ١٧.

٢- محمد بيصار : العقيدة والأخلاق ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٣ ، ص ١٦.

٣- سعيد إسماعيل على : نشأة التربية الإسلامية ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٧٨ ، ص ١٣١.

٤- المرجع السابق ، ص ١٣٥.

٥- زاهر عزب الزغبى : الإسلام ضرورة عالمية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧١ ، ص ٦٢.

٦- عباس محمود العقاد : مطلع النور ، (إسلاميا) ، القاهرة ، د.ت، دار الشعب ، ص ٦٦.

٧- أحمد أمين : فجر الإسلام ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٦١، ص ١٠٦.

٨- سعيد إسماعيل على : نشأة التربية الإسلامية ، ص ص ١٤١ – ١٤٢.

٩- المرجع السابق ، صفحات متفرقة.

١٠- سعيد إسماعيل على : دراسات فى التربية الإسلامية ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨٢ ، ص ١٢٦.

١١- مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٤، ص ١٣٨.

١٢- أحمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الإسلام ، أو التعليم فى رأى القابسى ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٥ ، ص ١٣٨.

١٣- محمد الحسينى حنفى : المدخل لدراسة الفقه الإسلامى ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ص ٢٣٣.

١٤- سعيد إسماعيل على : أصول التربية الإسلامية ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٩٣، الفصل الرابع.

١٥- المرجع السابق ، الفصل الأول.

١٦- عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، ص ٣٦ (طبعة دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، إبريل ١٩٦٥).

١٧- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : الفكر التربوى العربى الإسلامى ، تونس ، ١٩٨٧ ، ص ١٣٨.

١٨- البهى الخولى : آدم عليه السلام ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٩٧٤ ، ص ٤٣.

١٩- أحمد عبد الحميد غراب : الشخصية الإنسانية فى ضوء القرآن الكريم ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥، ص ٤٦.

٢٠- سعيد إسماعيل على : رؤية إسلامية لقضايا تربوية ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٩٣، ص ٢٠٨.

٢١- المرجع السابق ، ص ٢١١.

٢٢- محمد أبو زهرة : الولاية على النفس ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، د.ت، ص ٥.

٢٣- سعيد إسماعيل على : رؤيا إسلامية لقضايا تربوية ، ص ٢٤٢.

٢٤- سعيد إسماعيل على : الأصول الإسلامية للتربية ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٩٢، ص ٨٤.

٢٥- سعيد إسماعيل على : الأصول الإسلامية للتربية ، ص ٩٠.

٢٦- محمد حسين فضل الله : الحوار فى القرآن ، بيروت ، الدار الإسلامية ، ١٩٧٩، ص ٥٠.

٢٧- عبد العزيز عبد المجيد : القصة فى التربية ، القاهرة ، دار المعارف ، د.ت، ص ٢٧.

٢٨- سعيد إسماعيل على : الأصول الإسلامية للتربية ، ص ١٣٤.

٢٩- مالك بن نبى : الظاهرة القرآنية ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٨٠ ، ص ١٩٦.